البيــــادر

لميخائيــــل نعيمـــة

إنه في نظري كتاب الموسم لسنة ١٩٤٥ لا لأنه أحسن الكتب التي ظهرت في هذا العام أو أعظمها ، ولا لأنه يفتح في عالم الفكر أو الفن صفحـة جديدة ، ولا لأنه مبرأ من المآخذ سليم من العيوب ... ولكن لأنه يحاول أن ينظر إلى الكون ، وإلى مشكلات الحياة الانسانية واليومية بعين خاصة ـ هي عين الشرق ـ وأن يحل هذه المشكلات ، ويعالج أمور الحياة بطريقة خاصة هي طريقة الشرق ... وهـــذا وحده يكفي لأن يجعل للكتاب قيمة خاصة ، ثم تختلف الآراء بعـد ذلك في تقدير هذه القيمة كما تشاء .

والذي يجعل لمثل هذا الاتجاه قيمته أن موجة العقلية الأوربية قد غمرتنـا في بدء نهضتنا الحديثة ، وهي موجة عقلية قوية ، صادفت تضعضعـاً في روح الشرق ، وضعفاً في مقدرته على أثر الخمول الطويل والأحداث الميئسة في تاريخــه ، فجرفت هذه الروح وغمرتها ، وكانت هذه الظاهرة أشد بروزاً في الأدب المكتوب ، لأن الثقافة الأوربية تسيطر سيطرة تامة على مؤلفيه ، كما كانت هذه الظاهرة بارزة في الحياة الاجتماعية المدنية ، وإن بقي الريف سليماً في معظم البلاد العربية محافظـاً على طابعه في التفكير ، وفي النظر إلى الحياة ومشكلاتها ، وفي مواجهة هـذه المشكلات بطبيعته الخاصة العميقة .

ومن هنا كانت هناك فرجة واسعة بين الأدب الذي ينشئه أدباء الجيل ، وصميم الطبيعة النفسية والفكرية للشعب ... فالأدب الذي يستقي من عناصر أجنبية ، ولا يجد شخصيته المستقلة ، لأن هذه العناصر قوية طاغية ، بينما الشعب ـ في صميمه ـ لا يزال محافظاً على طبيعته الخاصة ، وسماته الفكرية والشعورية التقليدية .

وما من شك أن هناك فروقاً فكرية وشعورية بين الشرق والغرب ، لم تقو عليها إلى اليوم عوامل التقارب والامتزاج ، وليس منشأ هذه الفروق اختلافاً في الطبيعة البشرية ، ولكن للعوامل البيئية والتاريخية آثاراً لا فكاك منها ، وهذه الآثار من العمق والشمول بحيث تكاد تنشيء فروقاً في جوهر الطبيعة ، أوعلى الأقل فروقاً في النظرة إلى مسائل الكون والحياة ، وفي مواجهة هذه المسائل ، والسلوك حيالها على نحو معين .

والغيبية القدرية سمة واضحة في تفكير الشرق وشعوره ، تقابلها الواقعيـــة العملية في تفكير الغرب وشعوره . وعن هذه السمة تنشأ سمات أخرى في التفكير والشعور ، وفي التصرف والسلوك ، وهذا كله يترك طابعـــه في الفن إذا كان صادقاً بحيث يعطي صورة من الحياة .

فاذا نحن نظرنا إلى أعمال أدباء الطليعة عندنا لم نكد نعثر على السمات الشرقية الأصيلة إلا في القليل من هذه الأعمال الأدبية ، بينما نجد في سلوكهم العملي كثيراً من هذه السمات ! ذلك أنهم في سلوكهم مخلصون لطبيعتهم ولوراثاتهم وفي أعمالهم الأدبية خاضعون لثقافتهم وقراءاتهم . ومعنى هذا في النهاية أن ثقافتهم جاءت أكبر من شخصياتهم ، فغمرتها وطمست معالمها ، وأننا لا نزال ننتظر الطبائع الفنية القوية التي تهضم الثقافة الأوربية ، ثم تبقي لها بعد ذلك خصائصها الأصيلة . وأقرب مثال يحضرني الآن هو « تاجور » شاعر الهند العظيم . وكذلك نجد هذه الروح في عمل رجل كتولستوي الروسي يستقي من المسيحية في روحها الشرقية الشفيفة ، قبل أن تكثفها مادية الغرب الكثيفة !

★ ★ ★

هذا الكتاب الذي بين يدي الآن يحاول أن ينبه الشرق إلى خصائصه الروحية والفكرية ، وأن يكشف له عن حقيقة قواه وعن الممكنات المهيأة لهذه القوى ، وأن يرشده إلى ميدانه الأصيل الذي يناسب طبيعته ، ويتسع لرسالته ، وتبدو فيه

قوته بلا معوقات ؛ كما يحاول أن ينظر إلى مشكلات الكون والانسانية بعين الشرق، بعد أن يزيل عنها الغشاوات الطارئة ، والشيات العالقة ، ويجلوها كما كانت في يوم مضى ، وكما يرتقب لها في يوم من الأيام ، ومن هنا كل قيمته في هذا الأوان . وهو ليس كتاباً ذا تصميم خاص في تأليفه ، إنما هو مجموعة خطب أذيع بعضها بالراديو وألقي بعضها في مختلف الأندية في لبنان وسورية وفلسطين بين سني ١٩٤٠ - ١٩٤٤، ولكن له وحدة في روحه واتجاهه

وأنا أوثر - متى كان ذلك ممكناً - أن أدع المؤلف دائماً يشرح وجهة نظره بألفاظه ؛ قبل أن أعلق عليها بشيء ، لأن في ذلك إنصافاً له وللقارىء ، وفرصة للمشاركة في الحكم والنقد مع سائر القراء

عقد المؤلف سلسلة مقالات تحت عنوان : « التوأمان : الشرق والغرب » . أودعها خلاصة دعوته ، وحدد فيها حقيقة مواهب الشرق والغرب ، وطبيعة دوريهما في الحياة نقتطف منها هذه الفقرات :

« من أكمل كمالات العربية وأسماها تمييزها ما بين « البصيرة » و « البصر » وجعلها الكلمتين فرعين من أرومة واحدة ، بل توأمين من بطن واحد ؛ ولكن ذاك الفرع غير هذا . ولكن هذا التوأم غير ذاك . فكأنهما واحد وليسا بواحد ، فالعين إذ تمر بهما تحسّ ما بينهما من تجانس ، ولكنها تحس مع التجانس تباينا . والأذن إذ تلتقطهما تستأنس في الاثنين برنة تكاد تكون واحدة ، ولكنها غير واحدة ، فهما أبداً متلاصقان متباعدان ، ومتشابهان متناقضان . أما التلاصق والتشابه، ففي المصدر ، وأما التناقض والتباعد ، ففي الطريق والوساطة .

« فالبصر - ومركزه العين - يحصر كل همه في التقاط أشكال الأشياء وألوانها ، ومن أشكالها وألوانها يحاول أن ينفذ إلى كنهها حين أن البصيرة - ومركزها القلب أو الوجدان - همها الوصول إلى بواطن الأشياء دون التلهي بظواهرها . فالاثنان يدأبان وراء المعرفة . ولكن سبيل الواحد غير سبيل الآخر،

أما أي السبيلين أفضل وأكفل بالوصول إلى المعرفة ، فأمر لكل منكم الحق أن يبت فيه بحسب هواه » .

« أما أنا فقد قلت من زمان ـ وما أزال أقول ـ بأسبقية البصيرة على البصر في بلوغ الغاية المنشودة ، التي هي الفهم الأقصى المؤدي إلى الحرية القصوى » .

« لن يبلغ البصر قلب الحقيقة قبل أن يبلغ حدوده ، ويدرك عجزه وقصوره ، ويلوذ بالبصيرة فينقلب بصيرة ، أما البصيرة فلا حدود لها مثلما لا حدود للحقيقةالتي تتوخاها . فهي وإن توكأت على البصر لا تسير على نوره . فالمحدود لا يسع سوى المحدود ، وما كان بغير حدود لا يسعه إلا ما كان بغير حدود .

« والآن إذا قلت لكم : إن الشرق هو بصيرة العالم ، وإن الغرب هو بصره ، فما إخالكم تسيئون فهم ما أقول ، فتحسبون أن الشرق كله بصيرة ولا بصر ، وأن الغرب كله بصر ولا بصيرة . ذاك يعني تجريدكم الشرق عن كل حس خارجي ، وتجريدكم الغرب عن كل شعور باطني ، وهو غير الواقع وغير المعقول . وجل ماأرمي إليه هو القول بأن زبدة الشرق في بصيرته ، وزبدة الغرب في بصره ، وأن الاثنين توأمان متلاصقان يبدوان كأنهما واحد ، ولكنهما غير واحد . لقد اتبع الشرق هدى البصيرة ، واتبع الغرب هدى البصر ، فأنجب الأول الأنبياء ، وأنجب الثاني العلماء . فكانت هدية الأنبياء إلى العالم أدياناً ترفع الأرض إلى السماء . وكانت هدية العلماء علوماً تهوي بالسماء إلى الأرض » .

« لكنما الانسان ، وقوى الانسان ، من ظاهرة وباطنة ، في مد وجزر متلازمين . فللبصيرة – مثلما للبصر ـ مد يتلوه جزر وجزر يتلوه مد . ومن ذا ينكر أن من بصيرة الشرق قد فاض على العالم مد جارف من الكمالات والجمالات الروحية ؟ من ذا ينكر على الشرق قوة اندفعت من قلبه وفكره وروحه إلى كل قلب وفكر وروح ، فتغلغلت في نبضاتها وسيطرت على خلجاتها ، وتسلطت على أقدس أشواقها وأعز أمانيها » .

« من ذاينكر على الشرق سلطانه على كل أبناء الأرض مذ كانت الأرض وكان

الشرق ؟ وأي سلطان يتوخاه إنسان على إنسان أقوى من السلطـــان على القلب والفكر والوجدان » .

« ما هي بالهدية الطفيفة أن تهدي إلى العالم بأسره إلهـاً ، ومع الاله اليقين بأنه أبوك الشفوق الرحوم العـــادل ، ومع اليقين الرجاء بالانعتاق من ربقـة الموت وآلام الموت .

« تلك هدية الشرق إلى العالم . وهي هدية ماتلقفها العالم حتى أصبح كله معبداً لاله تعددت أسماؤه ولكنه واحد . وإذا النـاس يفتحون أبواب قلوبهم وأفـكارهم وبيوتهم لذلك الاله ، فلا يأكلون ولا يشربون ولا يزوجون ولا يتزوجون ، ولا يعلمون ، ولا يستريحون ، ولا يولدون ، ولا يموتون إلا باسمه ومشيئته » !

وفي هذه الفقرات الأخيرة يبدو ازدواج الشعر بالحقيقة في أسلوب ميخـائيل نعيمة على خير نسق واتساق .

ثم يعرض للحضارة الغربية المادية التي هي أثر من آثار البصر فيقول :

« هو ذا الانسان يهزأ بالنسر في جوه ، وبالحوت في بحره،وبالأسد في عرينه، وهو ينطق بصوته الأرض ، ويحبس نور النهار في أسلاك يسلطها على الليل فتمحو ظلامه ، ويجترح من العجائب أشكالاً وألواناً في مختبراته العجيبـــة . ولا ينقصه ـ على حد قول البسطاء ـ إلا أن يخلق إنساناً نظيره ثم يغلب الموت .

« حقاً إنه لتيار هائل جارف تتعـــالى أمواجه وتتدافع في كل ناحية . وفي تدافعهـــا صخب الزلازل وعتو العواصف ، مع شيء من بهجة الفصول ، ورونق السماء وسحر الفوز بالغنيمة ، وجاذبيـــة القوة الظاهرة . فلا غرو إذا ما غمرت المعمورة وبهرت الأبصـار فهي بنت البصر ، وللبصر الحق في أن يعتز بها . فهو ما أنجبها إلا لينعم بمواهبها وخدماتها .

« لا غرو أن يقف العالم ، وفي جماته هذا الشرق ، مشدوهاً تجاه مدنية الغرب المبصر ، وأن يهلل لها ويكبر ، وأن يغفر لها كل زلاتها ، ثم أن يعقد عليها آمالاً

أبعد بكثير من مدى سلطانها ، فهي – على ما فيها من مرارة – غنية بالحلاوة التي لا يصعب على أي إنسان تذوقها ، لأنها حلاوة يتذوقها الحس . أما حلاوة المدنية القائمة على البصيرة فدون تذوقها شق النفس وقهر الجسد . لذلك كانت الأولى أقرب إلى متناول الناس وأذواقهم من الثانية . ففيها كما جاء في بعض الحكايات : « ما يحلّي ويسلّي ويعشّي الحمار » .

« ذلك إذا ما أخذتموها من حيث هي تريد أن تؤخذ ، أي من حيث محاسنها لا غير . أما إذا تصفحتم مساوئها فلن تجدوا مدنية قبلها بلغت ما بلغته من التكالب والتباغض والقساوة مع الكثير من التبجح بالعكس . وإما عجبتم لمشهد غريب فاعجبوا معي لهذا الشرق . وقد أهدى إلى العالم المحبة والقناعة والتضامن والتآخي يقف اليوم على مفترق طريق البصيرة والبصر ، كسير القلب ذليل الجفن ضامر الصدر والبطن ، ويمينه الفارغة ممدودة نحو الغرب ، وفي يساره قائمة بأسفاره المقدسة وأسماء أنبيائه . ثم اسمعوه يستعطي بصوت متهدج فيه الانسحاق وفيه المسكنة والاندحار . وماذا عساه يستعطي ؟ إنه ليستعطي طيارات ودبابات ومدمرات ومدافع وقنابل ، وإني لأسمعه يقول :

« من يقايضني قنبلة محرقة بآية منزلة ؟ وطيارة أو دبابة بسفر مقدس ؟ بل من يقايضني مخترعاً واحداً بعشرة أنبياء ؟

« ما هذا ؟ ما هذا ؟ أبصيرة تستجدي بصراً ، أشمس تستغيث بذبالة ؟ .

« أجل إن بصراً نشيطاً لخير من بصيرة كايلة . وبصيرة الشرق حل بها كلال منذ أن بلغت من مداها أقصاها ، وإن ذبالة تشتعل لخير من الشمس اعتراها الكسوف . وشمس الشرق حل بها كسوف منذ أن انكفأ الشرق على ذاته في جزره الطويل . إلا أن الكلال يزول بالراحة ، والكسوف بعد أن يبلغ حده ينجلي عن شمس كلها نار وكلها نور . ومن ثم فالحياة – وهي أم التوأمين بالسواء ، أم البصيرة والبصر ، أم الشرق والغرب – ما درجت بالشرق إلى أسمى ذراه حتى عادت فدرجت

بالغرب . والذروتان ستلتقيان حتماً في ذروة واحدة ، هي ذروة الانسان الموحد ، والمالك زمام نفسه ، وزمام الأرض والسماء » .

وفي موضع آخر يقول :

« أصحيح ما يزعمه الزاعمون أن أنبياء الشرق قد جنوا على الشرق ، وأن أديان الشرق هي أكبر آفات الشرق ؟ أصحيح أن السماء قد شغلت الشرق عن الأرض ، وللآخرة عن الدنيا . وأن الاعتقاد بالقدر قد غلّ يديه ، وشلّ فكره ، وسدل حجاباً على عينيه ؟ أصحيح أن الشرق مات لأنه آمن بالاله الحي الذي لا يموت ؟ .

« لا ، ثم لا ، فالذي فعله الشرق حتى اليوم ما كان أكثر من صنع أهداف له وللعالم أجمع . وتلك الأهداف تتوحد كلها في هدف واحد ، هو هدف الكمال لهذا المخلوق الذي ندعوه إنساناً . هدف الانفعالات من قيود اللحم والدم والتغلب على الحيرة وما في الحيرة من وجع . وعلى الموت وما في الموت من ألم ، والتسلط على طلاسم الوجود ، ثم الانطلاق في حياة لا حدود لها ولا قيود ، يرف عليها سلام المعرفة ، ويتألق في جوها بهاء الألوهة ، ويندمج في قبضتها النقيض بالنقيض ، ويتلاشى في فضائها الزمان والمكان . وهذا الهدف قد نفذ إليه الشرق ببصيرته البالغة منتهى النقاوة والصفاء في بصائر الأنبياء . فهو حقيقة لا مجاز ، وهو رؤية لا رؤيا ، وهو واحة حية لا سراب خداع .

« أما إن الشرق بمجموعه ما بلغ ذلك الهدف بعد فأمر لا نزاع فيه على الاطلاق . والقائل بعكس ذلك كالقائل بأن كل رجل في الشرق نبي وكل امرأة نبية ، أو كالقائل بأن كل رجل في الغرب عالم أو مخترع وكل امرأة عالمة أو مخترعة ، وفي ذلك ما فيه من السذاجة والبلاهة .

« ليس يعيب منارة ألا يستنير بنورها الحارس الساكن في كنفها ، مثلما لا يعيب قمة نابتة في بقعة من الأرض ألا يتسلقها أبناء تلك الأرض . فهدف الشرق

هو حقيقة وضاءة ثابتة أبدية . سواء أفي هـذه الحقبة من حياته أدركه الشرق أم بعد حقب طويلة .

« ما هو بالشنار على الشرق ألا يدرك الهـدف بوثبة أو وثبتين ، أو في خلال قرن أو قرنين . فمـا هو بالهدف الذي يـدرك بألف وثبة وفي ألف جيل ، وإنمـا الشنار أن يعقد الشرق بمجموعه ، من بعد أن وثب ولم يصل . قعدة اليأس البائس. قعدة المنهوك المقهور . قعدة الخاسر الحائر . ثم أن يشيح بوجهه عن هدفه قائـلاً : إنه خيال ، وإن الوصول إليـه ضرب من المحال . وأن يدير وجهـــه شطر الغرب باحثاً هناك عن هدف وعن طريق .

« أقول لـكم : لا هدف للانسان أبـــدع وأقوى على الزمان من الذي نصبه الشرق ، وراح يدعو إليه الناس أجمعين ، وهو إذا ما تحجب عـن العصر المقنـع بألف قنـاع ، فلأنه ابن البصيرة النيرة الصافية ، وهو إذا ماعز مناله فلأن الـكمال عزيز المنـال . وهو حقيقة مثلما الوجود حقيقة ، بـل هو الحقيقة قبل كل حقيقة وبعد كل حقيقة .

« ثم أقول لـكم : إن الغرب لعاجز عن خلق مثل هذا الهدف ، بل عن خلق أي هدف للانسان يقوى على الزمان وتقلباته. ذلك لأن الغرب سائر على ضوء بصره والبصر لا يثبت على حال ، لأن الأشياء الـــتي يتناولها لا تثبت على حال . ولـكن للغرب رسالة كما للشرق رسالة ... إن تكن رسالة الشرق البصير خلق الأهـداف فرسالة الغرب المبصر هي تعبيد الطريق إليها » .

ثم يمضي بعد ذلك يـذكر فتوحات العـلم الحديث ، ويرى أنها ممـا يساعد على تعبيد الطريق إلى الهدف البعيد الذي رسمه الشرق منذ أجيال ، لأنها عجائب يدركها البصر — وإدراك البصر مهيأ لأكبر عدد من الناس — ثم يقول :

« وعندما تبلـغ علوم الغرب المادية أقصى مداها . عندما تفلـق الذرة أو ترتد عاجزة عن فلقها . ستراها وجهاً لوجه مع ما يجعل المـادة مادة وليس بمادة . مـع القدرة التي أسماها الشرق (الله) ورفعها هدفاً للانسان المخـــلوق على صورتهـا

ومثالها . وبكلمة أخرى سينتهي الغرب من المحسوس إلى غير المحسوس وبذلك تنتهي مهمته في هذه الدورة من حياة الانسانية ،وتبتدىء من جديد مهمة الشرق.

« ومهمة الشرق إذ ذاك ، وقد مهد الغرب له الطريق إلى الهدف ، هي جلو ذلك الهدف كما يظهر في كل بهائه ، نقياً من السفاسف والترهات التي حجب الجهل بها سناء وجهه باسم الله والدين ، وما هي من الدين والله لا بخمر ولا بخل . ثم لم شعث الانسانية التائهة ما بين بصرها وبصيرتها ، وبث النشاط في مفاصلها المفككة ، وبعث الايمان الدفين في قلبها بجمال ذلك الهدف وحكمته وعدله ، ثم السير بهذه الانسانية المتجددة نحو هدفها بخطى لا تردد فيها ، وعزم لا التواء فيه ، وإرادة تعرف ما تريد ، ولا تريد غير ما تعرف ، فلا يقهرها شك ولا يثنيها عياء » .

هذه السلسلة من المقالات التي اقتطفنا منها هذه الفقرات الطويلة هي العمود الفقري في الكتاب ، وهي أجود محتوياته على العموم ، وفيها يبدو إيمانه بالشرق وبصيرته ، وهو في الوقت ذاك لا يغمط الغرب وبصره حقه .

وللشرق إذن دوره الخالد في بناء هذه الحياة ، وأمامه أدوار أخرى عليه أن يؤديها بطريقته الخاصة ، وليست طريقته أن يقلد الغرب في وسائله ، ولا أن ييأس إذا سبقه الغرب في مجاله الخاص ، أو يصغر من شأن معتقداته وشعوره ، ولا أن يحني هامته أمام الآلة وحضارتها المادية المروعة .

وأنا أوثر أن يهتف للشرق دائماً بهذا الهتاف ، وأنكر الدعوات التي تبعثها الفتنة بحضارة الغرب المادية إلى حد التذاوب فيها والفناء .

إنه يجب أن نفرق دائماً بين الضعف والتخلف الموقوتين ، وروح الشرق الأصيلة وتعاليمه الصميمة ، ولا تأخذنا الفتنة بالحضارة المادية إلى حد الزراية على الأهداف الروحية الخالصة ، والتعاليم المثالية المجردة ، والسبحات الروحية المرفرفة ، والومضات الاشراقية حتى شطحات الخيال .

ومؤلف « البيادر » يرد لهذه الاتجاهات الشرقية الصميمة اعتبارها ، ويعرضها

في حماسة شعرية ، وفي وضوح ذهني كذلك في سلسلة المقالات التي عقدهابعنوان : « التوأمان : الشرق والغرب » وهذه الروح تتمشى كذلك في محتويات الكتاب كله من خطب وأقاصيص ومقالات على تفاوت بينها في الجـــودة والوضوح وحسن الأداء والتوفيق .

وأبرز ماتبدو محاكاة روح الشرق الفكرية والشعورية ، وعقيدته الغيبية القدرية في مقال بعنوان : « إن شاء الله » وفيه يقول :

« يشقى العالم بغروره وسيظل في شقائه إلى أن يتعلم ما تعلمه هذا الشرق من زمان ثم نسي معناه . إلى أن يتعلم قول : « إن شاء الله » . فالمشيئة لا تكون بغير معرفة ، والمعرفة لا تكون بغير مشيئة ؛ بل إن المعرفة هي المشيئة ، والمشيئة هي المعرفة . أما الجهل فلا مشيئة له .

« كيف لمن يجهل من أين أتى أن يشاء إلى أين يمضي ؟ أم كيف لمن لا يعرف علة وجوده أن يحتم هذه الغاية أو تلك لوجوده ؟ كيف لمن لا علم له بالأسباب أن يقر النتائج ؟ لا . ليس يعرف شيئاً من ليس يعرف سوابق ذلك الشيء منذ الأزل ولواحقه إلى الأبد . من كان في مستطاعه أن يقول : « أنا أعرف » حق له أن يقول: « أنا أريد » . أما الانسان الذي ما برح في عالم البدايات والنهايات والقناطير والفراسخ فقصيّ عن هذه المعرفة ، ومشيئته وبال عليه كلما عاكست المشيئة الكلية، فما له إن هو أراد التخلص من شقائه إلا أن يقول : « أنا أشاء كيت وكيت إن شاء الله كيت وكيت .

« لو تعود الانسان قول : « إن شاء الله » بقلبه لا بلسانه لما عتمت المعرفة أن سكبت نورها في قلبه . وإذ ذاك لآزرت المشيئة العامة مشيئته فأسعدته ، بدلاً من أن تسحقها فتشقيه . لكنه لاه عن مشيئة الحياة المبصرة ، ومافي طاعتها من طمأنينة لا تدرك ، وغبطـــة لا توصف ، بمشيئته العميـــاء ، وما تبذره في كل يوم من مشاكل وهموم

« أولا ترون كيف أنه يرهق جسده لتوسيع نطاق حاجاته إلى حد لا يطاق ، ويخنق روحه بتضييق نطاق حاجاتها إلى حد لا يطـــاق ! ما أبسط حاجات الجسد وأقلها لمن يعقلون . فالذي وهب الانسان الفكر وما فيه من سحر ، والخيال ومافيه من قوة ، والشعور وما فيه من جمال ، لم يبخل عليه برغيف وقميص ومأوى »

وهكذا وهكذا من مثل هذه التوجيهات في مواضع متفرقـــة من الكتاب وبعضها يرتفع إلى حد الابداع ، ويكون فيه فصل الخطاب في الموضـــع الذي يعرض له ويستعرضه

* * *

وبعد فالمؤلف يظل موفقاً ما ظل في الدائرة الواضحة ، وما ظل يواجه المسائل التي يبحثها مواجهة . ولكن يعن له في بعض الأحيـان أن يدخل في دائرة الرمـز والايماء ، وأن يعبر بالأمثولة أو بالأقصوصة ، بدل أن يعـبر بالبحث أو بالمقال . . . وهنا يفارقه التوفيق . لأنه موهوب في الطريقة الأولى وليس موهوباً في الثانية . فحيثما استخدم أفضل مواهبه بلغ غاية الجودة ، وحيثما حاد عنها هبط وجانبه التوفيق.

ومن هذا الطراز الأماثيل والأقاصيص التالية : في العاصفة . والهزيمة . والقصر والمعمل . وهدية الهم . وحكاية دمعة . وواحة السلام . ورغيف وإبريق وماء .

كما أن هناك بعض الموضوعات الـــتي تهبط عن مستوى الكاتب والكتاب ، مثل مقالي : « البيادر ، والصخور » لاسباب نفسه ، فليس فيهـا من ميزة فنيــــة أو ذهنية تجعلها جديرين بالنشر في مثل هذا الكتاب ، وإن كان الكتاب قد عنون بعنوان أحدهما « البيادر » وهذا من عجائب المفارقات بين الكتاب والنقـــاد في بعض الأحيان !

وكثيراً ما يجهل الفنان أبدع نتاجه ، ويعتز منه بما هو دونه جودة كما يبدو في اختيار هذا العنوان !

ويسير تعبير المؤلف وأسلوبه في مستوى جيد يبلـــغ روعة الشعر في بعض

المواضع ، ولكنك تعثر هنا وهناك على عبارات وتصورات يبدو تأثر المؤلف فيها بأسلوب الترجمة العربية السقيمة « للكتاب المقدس » . وهي تحجب كثيراً من الجمال الفني في هذا الكتاب .

وهناك تلاعبات لفظية وذهنية تقلل من الأصالة الفنية والصدق الشعوري في « البيادر » في بعض الأحيان . ولعل هذه الظاهرة هي التي تعوق هذا الكتاب في مجموعه أن يرتفع إلى مستوى الأعمال العظيمة ، لأن القارىء يحس عندها أنه أمام ذهن يعرض المسائل الروحية ، لا أمام طبع يفيض ، وشعور يتدفق ، وقد نجد فيهذا العرض براعةودقة وتوضيحاً للمسائل التي يتصدى لها في مستوى معجب، ولكنه يظل في حاجة إلى عنصر آخر ، عنصر الطبع الدافق الفياض .

فمثلاً عرض المؤلف لمشكلة الشر في الحياة . وهذه المشكلة نفسها عرض لها تاجور في كتاب « السادهانا » والموازنةبين العرضينتكشف عن الضخامة والأصالة في تاجور ، كما تكشف عن الفهم والبراعة في « ميخائيل نعيمة » . والمجال هنا لا يتسع لاثبات النصوص ، فليرجع إليها من يشاء .

ولكني أحب ألا يفهم أحد — بعد هذا كله — أن كتاب البيادر كتاب صغير . إنما هما جانبان عرضتهما للكتاب ولمؤلفه ، وبهما معاً يكون تقويمه الصحيح .

★ ★ ★